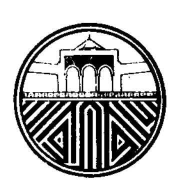


منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 132

تحقيق النصوص التراثية

التصور والواقع

تنسيق: نجاة المريني



الكتاب : تحقيق النصوص التراثية : التصور والواقع

تنسيق : نجاة المريني

الخطوط : بلعيد حميدي

الغلاف : إعداد عمر أفا

الناشر : كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

حقوق الطبع : محفوظة لكلية الآداب بالرباط بمقتضى ظهير 29-07-1970

الطبع : مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء

التسلسل الدولي : issn 1113-0377

ردمك : 9981 - 59 - 113 - 0

الإيداع القانوني : 2006/2161

الطبعة الأولى : 1427 هـ/2006 م

طبع هذا الكتاب بدعم من برنامج التعاون
بين الكلية ومؤسسة كونراد أدناور



مشاكل تحقيق النص الأدبي

عزة حسن

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط

إن التراث الثقافي العربي تراث عريق غني، يعدّ ثروة ثمينة من تراث الإنسانية، وإن المطالعة في كتاب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) للعالم التركي حاجي خليفة، وفي كتاب (تاريخ الأدب العربي) للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، وفي كتاب (تاريخ التراث العربي) للباحث العالم التركي فؤاد سزكين، كافية لإدراك عظمة هذا التراث وسعته وغناه في شتى فنون الآدب والعلوم.

لقد عَدَتْ عَوَادي الزمن على قسم من هذا التراث الثمين وأفنته. ولكن قسماً كبيراً منه قد نجا من يد الفناء، وظل حيّاً باقياً إلى اليوم. وهو الآن محفوظ مصون في خزائن الكتب والمتاحف في الأقطار العربية، وفي البلاد الإسلامية، وفي غيرها من بلاد العالم.

وخزائن الكتب في المغرب تزخر بمؤلفات مخطوطة من هذا التراث في فنون شتى من الآدب والعلوم. ألّفها علماء من المغرب، خلال العصور الماضية، وعلماء غيرهم من سائر البلاد العربية والإسلامية. ويحتاج هذا التراث إلى اهتمام وعناية خاصة، وجهود متواصلة في سبيل إحيائه، وذلك بتحقيق آثاره تحقيقاً علمياً صحيحاً، حسب منهج دقيق قويم، وإعادتها في الصورة التي وضعها فيها أصحابها، ولا سيما نصوص التراث الأدبي.

إن تحقيق النص الأدبي عمل علمي عسير وغير هيّن ولا يسير. وهو إبداع مثل سائر الإبداعات في المجال الأدبي والعلمي سواءً. وتحيط بعملية التحقيق العلمي مشاكل عديدة من وجوه مختلفة.

وتواجه مَنْ ينتدب لتحقيق النص الأدبي مصاعبُ جَمّة متعبة، تُعَنّيه وتكلّفه من أمره رَهَقاً في بعض الأحيان. أنا أعْرَفُ الناس بنَصَبِ الأيام وَسَهَر الليالي في هذا الميدان.

1 – من هذه المشاكل ما يتعلّق بالنص الأدبي المخطوط نفسه من جهات عديدة. مثل قِدَمه وتَلَفه، إذ قد يصيبه من جراء قِدَمه نقصٌ من أوله أو آخره، وفقدانُ بعض أقسامه، ويضيع اسمه أو اسم مؤلفه في نتيجة ذلك. وأضرب لكم مثالا على ذلك مخطوط (كتاب الأنواء) لأبي إسحاقَ إبراهيمَ بن السَّرِيّ الزَّجَّاجِ المتوفى سنة 310 من الهجرة.

هذا المخطوط مبتور الأول، سقطت من أوله بضع ورقات، فغاب اسم المؤلف واسم الكتاب من أوله. كما سقطت أوراق أخرى من وسطه. وجاء في آخره قوله: «كَمَل كتاب الأنواء والحمد لله رب العالمين». ومنه عرفنا اسم الكتاب. فمن هو مؤلفه ؟

قرأت الصفحة الأولى الباقية من المخطوط. فوجدت فيها قوله : «قال أبو إسحاق». وهذه كنية مؤلف الكتاب. ذلك أن المؤلفين في الثقافة العربية كثيرا ما يذكرون كُناهم أو أسماءهم كاملة في مواضع من كتبهم. وهنا تسعفنا المصادر القديمة، أي كتُب الفهارس وكتب تراجم الأدباء والعلماء.

وحقاً لجأت إلى كتاب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) في عنوان (كتاب الأنواء). فوجدت فيه أسماء عدّة وعلماءَ مؤلفين في الأنواء. ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن السَّرِيّ الزجاج. وهو مؤلف هذا الكتاب لاريب. يؤكد ذلك ويؤيده أن ابن خَلِّكَان ذكر له (كتاب الأنواء) في (وفيات الأعيان) خلال ترجمته له:

هذا المخطوط محفوظ في قسم المخطوطات في الخزانة العامة بالرباط. وهو النسخة الوحيدة لهذا الكتاب فيما نعلم. وقد اضطلعنا بتحقيقه. وهو قيد الطبع في مجمع اللغة العربية بدمشق.

وأذكر لكم مثالاً حَيّاً آخَرَ من مشاكل مخطوط النص الأدبي. وهو مخطوط (الكتاب الأوسط في علم القراءات) لأبي محمد الحسن بن علي بن سعيد المقرئ العُماني من علماء القرن الرابع والخامس من الهجرة.

هذا المخطوط فيه إشكال عجيب. فقد تفكّك مجلّدُه من القِدَم والبلى فانفرطتْ أوراقه وتبعثرت. فاختلط بعضها ببعض واختلّ ترتيبها. ثم جاء أحدهم، وجمع

هذه الأوراق وجلّدها ثانية، من غير انتباه إلى اختلال ترتيبها، إذ لم يكن فيها علامات التعقيبة والرقابة التي تدل على ترتيب الأوراق وتتابعها في مخطوطات التراث العربي.

عثرت على هذا المخطوط في الخزانة الحسنية الكائنة في القصر الملكي العامر بالرباط. فشرعت أقرأ فيه، فانقطع سِياق الكلام في بداية الورقة الثانية فيه. فظننت أن المخطوط ناقص، سقطت منه بعض الأوراق. وحين النظر في بقية الأوراق رأيت تتمّة الكلام في ابتداء الورقة الخامسة – وفيها اسم الكتاب وختام مقدمة المؤلف. فتابعت النظر في المخطوط بأكمله. فاكتشفت أنه تام غير منقوص، لكنه مختلّ الترتيب.

فعمدت إلى تصويره على الورق، واجتهدت في ترتيب أوراقه، حتى تمّ لي إعادتها إلى نِصَابِهَا بعد جهد جهيد. ثم اضطلعت بتحقيقه. وهو قيد الطبع الآن في دار الفكر بدمشق.

2 – ومن مشاكل النص الأدبي المخطوط مسألة الخط الذي كتب به. فقد يكون خطه جميلاً واضحاً جلياً، كتبه خطاط معروف، مثل مخطوط كتاب (أمالي اليزيدي) لأبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة 310 من الهجرة. وهو مكتوب بخط النسخ الجميل بقلم الخطاط محمد بن أسد بن علي القارئ المتوفى سنة 410 ببغداد، وهو شيخ الخطاط المشهور علي بن هلال المعروف بابن البوّاب المتوفى سنة 413. وعلى العكس من ذلك قد يكون الخط رديئاً سقيماً، تصعب قراءته، ومستغلِقاً يستعصي على النظر والفهم. وهنا تبرز نجاعة وجدوى وجود نسخ أخرى من الكتاب المخطوط يمكن الرجوع إليها للاستعانة بها والاستفادة منها. وهذا ما يُلْزِم من يعاني التحقيق التقصّيَ والتحريَ عن النسخ الموجودة للكتاب الذي يعمل في إحيائه.

3 – ونذكر في هذا المجال صحة نسبة النص الأدبي المخطوط إلى صاحبه الذي ألّفه. فقد يحدث أحياناً نسبته إلى شخص آخرَ غير مؤلفه، عن طريق الجهل أو الغلط أو التزييف والتزوير.

هنا تجب اليقظة والتقصّي. وللتقصي وسائل، منها قراءة مقدمة الكتاب المخطوط وخاتمته، وبدايات الأبواب والفصول فيه. فكثيراً ما يذكر المؤلفون أسماءهم أو

كُنَاهُم في مثل هذه المواضع من كتبهم، كما رأينا عند كلامنا على (كتاب الأنواء) لأبي إسحاق الزجّاج. ومن وسائل التقصي العودةُ والنظر في النسخ المختلفة للمخطوط ومقارنةُ بعضِها ببعض. ومن المفيد جداً في هذا الشأن الرجوعُ والنظر في كتب فهارس التراث، مثل (كشف الظنون)، وكتب تراجم العلماء والأدباء، مثل (طبقات النحويين واللغويين) لأبي بكر الزبيدي الأندلسي، و(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) المعروف (بمعجم الأدباء) لياقوت الحموي، وكتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان، و(إنباه الرواة على أنباه النحاة) للوزير القِفْطِي، و(بغية الوعاة) لجلال الدين السيوطي. ومحاولة الوصول بهذه الوسائل إلى التعرف على المؤلف الأصيل.

وأحدثكم عن حادث في نسبة الكتاب المخطوط إلى غير صاحبه بالغلط، عرفته وشهدته بنفسي في كتاب (المقصور والممدود) لابن وَلّاد المصري. توجد من هذا الكتاب نسخة نفيسة رائعة* في قسم (مُراد مُلاَّ) في المكتبة السليمانية بإستانبول، برواية أبي الحسين المهلَّبي عن المؤلف. وقد كتب أحدهم في صفحة العنوان بخط مخالف لخط النسخة: (كتاب المقصور والممدود للشيخ الإمام محمد المهلَّبي، غفر الله له. آمين). وهذا غلط. فليس الكتاب للمهلبي. ومنشأ الغلط هو ما جاء في أول هذه النسخة: «قال أبو الحسين علي بن أحمدَ بن محمد المهلّبي، قال أبو العباس أحمدُ بن محمد بن الوليد: هذا كتاب نذكر فيه المقصور والممدود». وهذا الكلام واضح الدلالة على أن المهلبي روى الكتاب عن ابن ولّاد المؤلف. فالتبس الأمر على هذا الرجل الجاهل الغافل، ونسب الكتابَ إلى المهلّبي. والعجيب في هذا الغلط أن اسم المهلبي ليس محمداً، بل هو علي كما جاء في الجملة التي ذكرناها من أول الكتاب. والنسخ المخطوطة الأخرى من الكتاب تعزز نسبته إلى ابن ولاد.

وقد اطّلع أحد العلماء على هذه النسخة، وعرف هذا الغلط، فضرب بالقلم على عبارة (محمد المهلبي) في العنوان. وكتب تحتها (لأبي العباس أحمدّ بن محمد بن الوليد). وهذا هو الصحيح. وكذلك اطّلع على هذه النسخة العلاّمة الهندي عبد العزيز المَيْمَني في جولته على خزائن المخطوطات في إستانبول، وعرف الغلط في نسبة الكتاب. فكتب قبالة العنوان: «هذا مقصور ابن ولّاد. لا غيرُ»، ووقّع اسمه تحته.

4 – ونذكر من المشاكل المعروفة أيضاً صعوبة الوصول إلى النص المخطوط والوقوفِ أو الحصول عليه. والسبب هو أن آثار التراث العربي والإسلامي موزعة ومحفوظة في مكتبات كثيرة، لا تكاد تُحْصى، في بلاد شاسعة ممتدة إلى كل أنحاء العالم، من البلاد العربية والبلاد الإسلامية، إلى بلدان أوربا وحتى أميريكا. وأذكر لكم مثالاً كتابَ (المرشد في وقوف القرآن) للإمام العُمَاني الحسن بن علي. هذا الكتاب توجد منه نسخة مخطوطة في قسم المخطوطات في الخزانة العامة بالرباط، السفر الثاني منه فحسب، وأنا أعمل في تحقيقه وأبحث عن نسخ أخرى منه.

وقد أخبرني صديقي الدكتور رمضان ششن، وهو خبير بخزائن المخطوطات في إستانبول وسائر مدن الأناضول، أخبرني أن هناك نسخة من هذا الكتاب في مكتبة جامعة استانبول، وأن قطعةً منه موجودة في مكتبة مدينة آماسيا في قلب الأناضول. فانظروا واعجبوا. يؤلَّف هذا الكتاب في عُمَان، وتُحْبَس نُسَخُهُ المخطوطة في هذه المدن الثلاث المتباعدة.

5 – ومن مشاكلنا التي تعذبنا نحن العاملين في تحقيق التراث القديم وإحيائه سوءُ المعاملة الإدارية. وأعني تقصيرَ وسوءَ تصرف المسؤولين عن حفظ المخطوطات والقائمين على شؤونها. فإن من هؤلاء الناس مَنْ يتصعّب ويداور العالم الذي يرغب في إحياء كتاب مخطوط، فيضِنّ عليه ويعترض طريقه ويعوق عمله العلمي بالحق أو بالباطل. وقد وقع لي شيء من ذلك أيامَ تحقيقي ديوانَ العَجّاج الراجز الاسلامي المشهور. وهو بشرح عالم اللغة والشعر الكبير أبي سعيد عبد المالك بن قُرَيْب الأصمعي. فقد اقتنيت نسختين منه من خزائن إستانبول في سهولة ويسر. وعلمت أن منه نسخة بخط العلاّمة محمد بن محمود بن التلاميد الشِّنْقيطي في دار الكتب المصرية في القاهرة. فكتبت من دمشقَ في طلب صورة منها مرة بعد مرة. فلم أحصل على طلبي. وكانوا يحتجون لي بحجج لم أقتنع بها. ثم سافرت إلى القاهرة في مهمة رسمية سنة 1960. وتوسّلت ببعض ذوي الشأن هناك، حتى حصلت على صورة من نسخة الشنقيطي لديوان العجاج. وكان هذا العالم قد نقلها من أصل قديم محفوظ في خزانة السلطان محمد الفاتح في إستانبول. وكانت عندي صورة من هذا الأصل القديم.

6 – ومن مشاكل تحقيق النص الأدبي السيئة ما يتعلق بحال وصيغة الشخص الذي ينتدب للتحقيق من جهة مستواه العلمي، وخِبْرته وتجربته في هذا الميدان. فقد يكون هذا الشخص عالماً مكيناً في علمه، متيناً في خُلُقه، صادقاً مخلصاً، يحسن عملَه، ويسعى ويجهد في إتقانه، ويلزم جانب الجد والنزاهة في إنجازه. وفي مثل هذه الحال يكون النجاح والإبداع.

وفي ضد هذه الحال قد يكون هذا الشخص الذي ينتدب لتحقيق النص الأدبي من التراث جاهلاً، يدّعي العلم والأدب، ولكنه لا يرقَى في علمه إلى مستوى يمكنه من النجاح المطلوب في إحياء التراث القديم. وتكون النتيجة المحتومة هي الخيبة والضياع.

وبين يديَّ الآن طبعة جديدة من كتاب (ديوان المعاني) لأبي هلال العسكري المتوفى سنة 395 من الهجرة؛ وهو كتاب كبير، رائع رائق، جامع لمنتخبات جميلة من الشعر والنثر ونقدهما. طبع هذا الكتاب من غير تحقيق علمي في القاهرة من سنين.

ثم نشرته دار الجبل في بيروت بالتصوير عن طبعة القاهرة من غير أدنى تغيير فيه. وكثيراً ما هَمَمْتُ بأن أختار أحدَ طلبتنا النابهين اللامعين في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وأنْ أعهد إليه بتحقيق هذا الكتاب الجميل، فكان يردُّني عن ذلك مبدئي وفكرتي أنّ الكتاب مطبوع على عِلاّته، وأنّ ما لم يطبع من كتب التراث، وهي وفيرة كثيرة، أولى بالتحقيق والإحياء.وأخيراً ظهرت هذه الطبعة الجديدة في دار الغرب الإسلامي في بيروت، في جزءين اثنين، بتحقيق أحمد سليم غانم.

غمرت الفرحة نفسي حين رأيت هذه الطبعة الأنيقة. ولكن فرحتي سرعانَ ما عادت غضباً وأسفاً ومرارة،، لأن هِمَّة هذا الرجل وعلمَه لم يسعفاه في تحقيق هذا الكتاب على الوجه الصحيح. وقد تبيّن لي أنه جاهل في اللغة والنحو والصرف والعروض والقافية وما إليها، غيرَ عارف بأساليب البيان العربي، ولا عالم بالشعر العربي القديم ومعانيه وصوره ومراميه. فجاء الكتاب مليئا بالأغلاط، مشحوناً بالتصحيفات.

قال في المقدمة التي كتبها لعمله : «قمت بضبط ما أشكلَ من المتن...» (ص 35). ولكنه لم يفعل ذلك إلا قليلا. وهذا القليل جاء فيه غلط كثير. (ص 102). وقال كذلك : «وَضْعُ تفسيرٍ مختصر للمفردات اللغوية التي تحتاج إلى تفسير». ولكنه لم يَفِ بذلك إلا نادراً. وقال كذلك : «إثبات اختلافات النسخ، وكذا الروايات المتعددة للنصوص والشواهد الشعرية». وقد أكثر من إثبات الاختلافات حقاً. وهنا كانت الطامَّةُ الكبرى.

فهو كثيراً ما يثبت الغلطَ أو المصحّف من ا لكلام في المتن، ويورد الصحيح منه في الهامش، ويكتب إلى جانبه : والتصويب من ... وهو ما يعني أنه يعتبر الصحيح غلطاً، والغلطَ صواباً. وهذا منتهى الجهل والسُّقْم والضرر والدَّرَك الأدنى في تحقيق النصوص الأدبية التراثية.

والنتيجة السيئة الحاصلّة من هذه الهفوات التي ذكرنا وغيرها ما لم نذكره، أنّ كتاب (ديوان المعاني) الجميل قد بقي غير محقّق ولا مصحّح، وأنه مازال في حاجة إلى تحقيق علمي قويم، يُظْهر لنا جماله، ويُشيع طيبه وشذاه.

وبعدُ، فإني أعود إلى قولي بأن تحقيق النص الأدبي التراثي عمل عسير. يحتاج إلى الفهم والذكاء، والدراية والكِفاية، وإلى المعرفة المكينة باللغة العربية وعلومها وآدابها، وإلى علم واطلاع واسع على الشعر العربي. وهو أي التحقيق إبداع مثلُ سائر الإبداعات في المجال الأدبي والعلمي سواءً. فأوصي مَنْ يُقْدِم عليه أنْ يحوز المطالبَ التي ذكرناها، وأن يتحلى بالحزم والعزم والجِدّ والصبر على المصاعب والمتاعب.